عدد 12 (1999) ، 119-131

موقف ابن باديس من الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1925 - 1939)

ملخص

إن المنهج السياسي عند إبن باديس له خطان مختلفان: خط منكسر و متلون و خط مستقيم ثابت، سلك الخط الأول في التعامل الظاهري مع الإستعمار، يشتد و يلين حسب الظروف السياسية و الوطنية إزاء الإحتلال و عملائه المحليين، و سلك الخط الثاني في إستقامة و ثبات دائمين، في غرس القيم الدينية و الوطنية و الثورية في عقول الأجيال على إختلاف أعمارهم ومستوياتهم الثقافية و الإجتماعية.

و من خلال النصوص و الأدلة التاريخية و التحاليل الموضوعية، التي سنتتبعها في معالجة مواقف هذا الرجل، سنقف عند كثير من المحطات التاريخية و السياسية و الفكرية في مقاومته للإستعمار أو مهادنته له.

و لكننا سنقتصر في هذا المقال على البدايات الأولى من مناهضته للإحتلال، على أن نتابع الموضوع في مقالات لاحقة، نظرا لثراء المادة الخبرية و التحاليل العلمية التي سنسلكها في معالجة هذا الموضوع على مدى 15 عاما، قضاها المصلح الجزائري في التعبير عن رفضه بجميع الأشكال و الأساليب التي توفرت لديه لسيطرة أمة أجنبية على مقدرات البلاد الجزائرية وشعبها.

د. عبد الكريم بوصفصاف
قسم التاريخ، كلية العلوم
الإنسانية و العلوم الاجتماعية
جامعة منتوري
قسنطينة، الجزائر

Résumé

Dans cet article est exposée l’approche politique d’Ibn Badis vis-à-vis du colonialisme français. Il y a lieu de relever deux tendances différentes: la première consiste à traiter le colonialisme avec souplesse et diplomatie selon les conditions politiques et nationales de l’époque, tandis que la deuxième est caractérisée par une rigueur et une constance dans l’enracinement des valeurs réligieuses, nationales et révolutionnaires du peuple algérien.

إن مواقف المصلح الجزائري "ابن باديس" إزاء الإستعمار الغربي قد بدأت تبرز في عالم السياسة منذ صدور العدد الأول من جريدته " المنتقد" سنة 1925م، و هي مواقف نقدية و معارضة للإستعمار الأوربي في البلاد العربية بصورة عامة، كالسياسة الإنجليزية في شبه جزيرة العرب و السياسة الفرنسية اتجاه حرب الريف المغربية وإزاء السياسة الإيطالية في ليبيا و الصهيونية في فلسطين، و مع الإستعمار الفرنسي و عملائه المحليين في الجزائر، و أن الرجل قد سلك في تلك المقاومة منهجا مزدوجا من اجل الحفاظ على استمرارية المعارضة و التدرج في الوطنية نحو الثورة. نود في هذا المقال أن نتابع أساليب و

أشكال مقاومته للاستعمار الفرنسي داخل الوطن و خارجه حتى مطالع سنة 1931م، مع مقارنة تاريخية سياسية بينه و بين الصيدلي فرحات عباس المعروف في عالم السياسة الجزائرية بالمرحلية و التطور.

كانت سياسة ابن باديس في المقاومة تقوم على محورين متناقضين: المحور الأول على الصعيد الخارجي و المحور الثاني على الصعيد الداخلي.

المحور الأول: و يتمثل في أن ابن باديس إذا أراد أن يوجه خطابه إلى الحكومة الفرنسية في باريس، يخاطبها بقيم و مبادئ الثورة الفرنسية.

أما **المحور الثاني:** فيتعلق بالجهة الداخلية، وفيه يكون خطابه عند مواجهة السلطات الفرنسية شديد اللهجة، حيث يصف المعمرين و أنصارهم من الجزائريين بالعنصرية و الأنانية و الجهل و التملق، فهو مثلا عندما أوقفت الإدارة الإستعمارية جريدة "المنتقد" في يوم 31 تشرين الأول (أكتوبر) 1925 سارع إلى إنشاء صحيفة "الشهاب".

بعد ذلك بإحدى عشرة يوما فقط (12 (تشرين الثاني) نوفمبر 1925)، و مما جاء في تعليقه الإنتقادي للسلطات الفرنسية عقب حجز هذه الجريدة قوله: "...فقد أوقف "المنتقد"، ولكن الفكرة الحرة الحقة السليمة الإصلاحية لم تقف و لن تقف، أوقف "المنتقد"، فها هو أخوه "الشهاب" في سماء الحرية و الأخوة و المساواة".(1)

إن هذا التصريح الذي دبجه قلم بن باديس في العدد الأول من "الشهاب" يعبر عن التجربة المرة التي خاضها مع سلطات الاحتلال و عملائها المحليين، بعد أن دخل في عالمي الصحافة و السياسة من جهة، ومن جهة أخرى يدل على بداية الحركة الإصلاحية السليمة التي سيقودها لمدة خمسة عشر عاما بعد التاريخ المذكور، مما يجعلنا نصف الرجل بالازدواجية في الخطاب تجاه الحكومة الفرنسية بعد أن تأكد من القبضة الحديدية التي تمسكت بها السلطات الفرنسية تجاه المسلمين الجزائريين يدل دخوله في مجال الخطاب الازدواجي.

و من هذا التاريخ حتى سنة 1939م نجد الخطاب الباديسي يتميز بهذه الميزة التي تجمع بين النقد و المرونة تجاه الإدارة الإستعمارية في الجزائر و الحكومة الفرنسية في باريس " هذه هي جريدتنا اليوم التي سنخدم بها خير ونافع للأمة الجزائرية وحكومتها الفرنسية ... رجاؤنا من الأمة الجزائرية أن تسمع القول و تتبع أحسنه من جميع الكاتبين، ورجاؤنا من حكومتنا الفرنسوية ورجالها الأحرار أن يتحققوا من إخلاصنا كجزائريين برهنوا في جميع المواقف على حسن نواياهم نحو أم الوطن و إننا لا نريد إلا أن نعيش مع جميع أبناء فرنسا في حرية و أخوة و مساواة، متحابين ومتعاونين على ما فيه سعادة الجميع، هذه تصريحاتنا و نحن بها عاملون...".(2)

لاشك أن القارئ لهذا النص لا يسعه إلا أن يقرر أن سياسة ابن باديس كانت سياسة إدماجية واضحة، و له الحق في أن يقرر ذلك لأن الرجل هنا يعلن بلغة صريحة أن الجزائريين لا يريدون أن يعيشوا إلا مع فرنسا أم الوطن، و سيكون لنا نحن أيضا هذا التصور ذاته و لكن هذا في حالة ما إذا نظرنا إلى هذا التصريح باعتباره منعزلا أو منفصلا عن سائر النصوص الأخرى.

و لكن الباحث عموما و المؤرخ بصفة خاصة لا يمكنه أن يكون منصفا إذا أخذ بهذا المنهج الذي لا يراعي السابقات و اللاحقات من أي موضوع من الموضوعات كيف يكون ذلك الإعتقاد و التصورات سنرى ذلك الشعار الذي تحمله جريدة "المنتقد" التي أوقفت بسبب لهجتها المعادية للسياسة الإستعمارية المهيمنة في البلاد و هو "الحق فوق كل أحد و الوطن قبل شيء."

حقا أن موقف ابن باديس الإزدواجي يخلق للمؤرخ الباحث عن الحقيقة شيئا من التردد و التذبذب وقد يظلم الرجل إذا أخذ أقواله على علتها، و لكنه قد يعد متحيزا أيضا إلى حركته إذا سلك منهجا واحدا، واقتضى البحث إيجاد المبررات المستمرة لسلامة المنهج السياسي و الإصلاحي عنده. وانطلاقا من هذه المعادلة سنتعامل مع النصوص الباديسية بجميع محتوياتها.

لقد أراد ابن باديس بعد دخوله في الحياة الصحافية و السياسة أن يبين لخصومه أن مشروعه هو مشروع المبادئ و القيم الوطنية و الدينية، و ترك الحكم بينه و بين هؤلاء الخصوم لأجيال المستقبل حيث يقول:" إن لمشروعنا مبادئ صحيحة، و لنا غاية شريفة فما علينا إلا أن نسير على تلك المبادئ إلى تلك الغاية بضمائر طاهرة و أقلام نزيهة حتى نكون قد قمنا بواجبنا الوطني بصدق و إخلاص و نترك لمن بعدنا نموذجا صالحا و تراثا طيبا و ثمرة صائغة (3).

هكذا إذن يعلق ابن باديس عن خطته في العمل و مشروعه الوطني لرجال الحاضر و المستقبل و هو لا يبالي بخصومة مهما كانت و جهتهم مادام مخلصا لوطنه ولأبناء وطنه كما يقول، و مخلصا لفرنسا أيضا و في الوقت نفسه يقبل معارضة الآخرين. إذا كانت منطلقة من فكرة منصفة و آراء موضوعية، أما الذين يعارضونه من منطلق العدواة و الرفض، فإنه يترك أمرهم لحكم الأجيال القادمة " و من سلك معنا سبيلا من تلك السبل الثلاثة أعرضنا عنه و تركنا للعقلاء الحكم عليه، و فوضنا للجيل المقبل النظر في صنيعنا وصنيعه، و التمييز بين ما أهديناه له و ما أهداه له أخصامنا، فلنثبت على سيرنا، وليثبت الأخصام على سيرهم إن شاؤوا و ليعمل كل على شاكلته، فكل ميسر لما خلق له" (4).

لقد كان ابن باديس يوضح خطته ومباده، و أهدافه السياسة والإصلاحية عند بداية كل سنة صحافية، أو عند انقضاء سنة و مجيئ أخرى، ففي كل مناسبة من هاتين المناسبتين يكتب في السياسة، و في التربية و التهذيب (التعليم)، و في النقد و التعليق و غير ذلك من الموضوعات، فهو يريد في كل رأس سنة من سنواته الصحافية أن يستجلي العبر و يستخلص النتائج بالتروي و إمعان النظر في محيط الجزائر السياسي و الثقافي الذي يتحرك فيه، ففي شهر جوان سنة 1962م من العام الصحافي كتب حصيلة سنة كاملة قال فيها بخصوص السياسة: " قد تأسست هذه الصحيفة على أن تخدم الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية فكانت في جميع مواقفها ترمي بنفسها في سبيل الأمة حيث تسلم و كانت في جميع مواقفها متشبثة بالجمهورية الفرنسوية مستصرخة عدلها و إنسانيتها مستعينة بها على كل من يخرج عن مبدأ الحرية والأخوة

والمساواة " (5) فهو حتى الآن يعلق آماله على ديمقراطية فرنسا و عدلها و مساواتها لإخراج الجزائريين من الوضعية الأهلية.

إن مقاومة ابن باديس السياسية تتجلى في مواقف مختلفة، فقد كان ينتقد و يعلق على معظم الخطب السياسية التي تصدر عن الحكام العامين أو عن رؤساء الحكومات أو رؤساء الجمهورية أو النواب، و يرد عليها سلبا أو إيجابيا، و ذلك ابتداء ب "موريس فيوليت" الحاكم العام على الجزائر في ربيع سنة 1926م و الذي ألقى خطابا موجها لسكان القطر الجزائري على اختلاف عناصرهم و دياناتهم و جنسياتهم، ظهر فيها بمظهر المدافع عن العدل و المساواة و الإخاء بين جميع الأجناس فكان عليه أن يرد عليه بعد ترجمة الخطاب، مؤكدا على أن الروح الديمقراطية و المفاهيم والإشتراكية التي كان يتحدث بهما فيوليت "في خطابه" لا تتحملها الروح الإستعمارية المستولية على أكثرية الفرنسويين بالجزائر". و أنه إذا كان لا يشك في مدى تمسك "فيوليت" بمبادئ الديمقراطية و الاشتراكية، فإنه يشك في قدرته على زعزعة المستوطنين عن مبادئهم الإستعمارية (6).

و هذا ما أثبتته الأحداث فعلا، فعندما جاءت الجبهة الشعبية إلى الحكم في فرنسا و هي مؤلفة من أحزاب اليسار و كان فيوليت واحد من أعضائها، لم تستطع المساس بمصالح المستعمرين في الجزائر، حفاظا على سيادة الإمبراطورية الفرنسية في شمال إفريقيا. و نلاحظ من خلال النص السابق أن ابن باديس، يريد أن يظهر بمظهر معتدل بين مقومات الأمة الجزائرية و ماتقتضيه الحضارة الفرنسية الجديدة من تغيرات، فهو يحاول أن يعطي صورة مقبولة عن السياسة الفرنسية في الجزائر لدى مواطنية، و في الوقت نفسه يحاول طمأنة فرنسا بأن الشعب الجزائري، لايمكنه أن يبقى على العادات و التقاليد التي لا تتماشى مع تطورات العصر فيقول: "إننا لا نعتقد أنه من سياسة فرنسا - فيما نعلم - أن تخلع الأمة الجزائرية جميع تقاليدها - عامة - و تصبح فرنسية محضة... و ليس من سياستها كذلك أن تبقى الأمة الجزائرية متمسكة بجميع عوائدها حتىالضارة منها الناشئة عن جهل بدينها، تلك التي تبقى بها منحطة في أخريات الأمم، بل سياسة فرنسا - فيما نحسب - هي ترقية الأمة الجزائرية محافظة على مقوماتها القومية و تقاليدها النافعة الملائمة مخلصة لفرنسا عاملة معها كعضو منها" (7). إن ابن باديس بناءا على هذا النص يريد أن يبقي الأمة الجزائرية على جزائريتها و بكافة مقوماتها، و لكنه يطلب من فرنسا أن تنهض بها من تخلفها و أن تمدها بشيء من ثمار حضارتها، التي لا تتعارض مع أحوالها الشخصية و القومية، و ينصح فرنسا بعدم الاعتماد على الفئة التي انسلخت ذاتيتها واندمجت نهائيا في المجتمع الفرنسي، لأنها لا تستطيع أن تساعد فرنسا في النهوض بالأمة الجزائرية، لأن الأمة الجزائرية نفسها ترفض الإنصياع لتوجيهات هذه الفئة، فهو إذن يعارض تمام المعارضة برنامج النخبة المفرنسة، و الذي يتضمن تطوير المجتمع الجزائري عن طريق النخبة لا عن طريق فرنسا (8).

"فالفئة القليلة التي لم تبق لها محافظة و لا إعتبارا لجميع تقاليد الأمة الجزائرية لا يمكن أن تساعد فرنسا على تنفيذ سياستها التي ذكرناها في الأمة الجزائرية، و لا يمكن

للأمـة بـالطبع أن تتخـذها قدوة أو تنصـاع لإرشـاداتها و السـواد الأعظـم مـن الأمـة هـو الفريـق الـذي لا يـزال شـديد التمسك بجميع تقاليده الضـارة و النافعـة منهـا، الصـحيح و الفاسد منهـا. و مـن جـراء الجهل المتفشـي فيهـا و الزعامـة الروحيـة المتسلطة عليهـا، و على فرنسا تحمل بقائها على حالتها هاته مسؤولية كبرى" (9).

إن ابـن بـاديس يـرى أن الفئـة المؤهلـة لمسـاعدة فرنسـا علـى النهـوض بالشـعب الجزائري و تطويره هي الفئة المعتدلة التي تجمع بين مـاهو صـحيح، و نـافع، و معقول للمجتمـع الجزائـري ويتلقـى الحضـارة الفرنسـية بـالقبول، يقـول المصـلح الجزائـري: "والفريق المعتدل الذي يحافظ - عن تقاليد الشعب - على ما هو صحيح ونـافع ومعقول، ويتلقـى المدنيـة العصـرية والثقافـة الفرنسوية بـالقبول هـو الـذي يمكـن حقيقـة أن تثـق بـه الأمـة الجزائريـة ونعتـد بـه وفـي مقدرتـه أن يسـاعد فرنسـا علـى إنهـاض الشـعب حسـب سياستها التي ذكرنـاها فهو الجدير بتأييد الأمـة لـه والإعراض عن كل عثرة يلقيهـا فـي سبيله فريق الطفرة أو فريق الجمود..."(10) ويعني هنا بفريـق الطفرة وفريـق الجمـود، جماعة النخبة والنواب دعاة الإندماج. وجماعة الطـرقيين المحـافظين الـذين كانـت تعتمـد عليهم الإدارة في تهدئة المجتمـع الجزائـري. وهـذا الموقـف يوضـح اختلاف سياسـة ابـن بـاديس عـن سياسـة الجمـاعتين المـذكورتين. فبالنسـبة للنخبـة التـي وصـفها بالأقليـة كانـت تسعى إلى الحداثة والتمدن، دون أي اعتبار لقيم الشعب الجزائري وعاداته وتقاليده، فـي حين كان الطرقيون محافظين تقليديين رافضين للتقدم والترقي.

أما سياسة ابن بـاديس، فقد كانـت سياسـة توفيقيـة تجمـع بـين الإستفادة مـن الحضـارة الغربيـة وبين الحفاظ علـى حضـارة الأمـة ومقوماتهـا الشخصـية. ولكـن فرحـات عبـاس - وهو وجه من وجوه النخبة الجزائرية البـارزة - كـان علـى خـلاف النخبـة الأخـرى، فهـو يريد أن يسلك الطريق ذاته الذي سلكه بين التمسك بـالتراث الـوطني والأخذ بالحضـارة الغربية، ولكنه لا يقدم أي تحفظ فـي الأخـذ بعناصـر الثقافـة الغربيـة، وهـو نفسـه لـم يكـن يجيد إلا اللغة الفرنسية ولا يعرف شيئا عن اللغـة العربيـة إلا الدارجـة المحليـة، بـل فـإن إضطلاعه عن الحضارة العربية الإسلامية كان عن طريـق مؤلفـات الغـرب (11). مثـل كتـب (غوسـتاف لوبـون، فيليكس قـوتي) (Gustave LEBON, Phelix GAUTIER). وإذا كان عباس فرحات يعتمد في سياسته علـى مبـادئ الثـورة الفرنسـية فـإن ابـن بـاديس كـان هـو الآخـر يسـلك الطريـق نفسـه لاسـترجاع الحريـة السياسـية، الدينيـة، الإقتصـادية والاجتماعية للشعب الجزائري وكان يترقب بشوق ملتهب حلول عيد الحريـة الفرنسـية في 14 يوليو من كل عـام وهـي ذكـرى سـقوط "الباسـتيل" "La Bastille" وانـهيـار عـرش عائلـة " البوربـون" "BOURBON" وحلفائهـا الإقطـاعيين (12). سـنة 1789م ليـذكر الحكومة الفرنسـية بأنـه إذا كانـت ثورتهـا قد جـاءت بمبـادئ الحريـة والإخـاء والمسـاواة، فإن الشعب الجزائري هو أولى من غيره بالإستفادة من هذه المبـادئ مـا دام يعيش تحـت العلم الفرنسي الملون، حيث كانـت ذكـرى عـام 1926م بالنسـبة لابـن بـاديس مناسـبة فذة ليعرض فيها برنـامجه السياسي على الحكومة الفرنسية والذي يتضمن المطالب الآتيـة:

أولا: دمج برنـامجي التعليم الفرنسي والجزائري وإلغاء البرنـامج الخاص بالأهالي.

ثانيا: حرية العمل السياسي وضمان المساواة في التمثيل النيابي بين المعمرين والجزائريين.
ثالثا: المساواة بين الأهالي والمستوطنين في القروض الفلاحية والوظائف الإدارية، ودعم مصادرة أراضي الجزائريين.
رابعا: إعادة المؤسسات الإسلامية إلى أصحابها، وإعادة المحاكم الشرعية، ووضع مجلة الأحكام الشرعية.
خامسا: ضمان حرية التعبير والفكر والنشر (13).

يحاول ابن باديس هنا أن يضرب " عصفورين بحجر واحد"، كما يقال، فهو من ناحية يطالب فرنسا بتحقيق مطالب كان يرى حتميتها للجزائريين...، ويحذر المستوطنين من مغبة عرقلة هذه الإصلاحات من ناحية أخرى، فهو في كل شئ يفرق بين الإدارة الإستعمارية في الجزائر وبين رجال فرنسا الإنسانيين المحررين في باريس، كما يستعمل في نفس الوقت أسلوبين: أسلوبا نقديا جارحا، واسلوبا ناعما مبصرا لرجال فرنسا بحقوق الجزائريين (14).

وقد كتب فرحات عباس خلال العشرينات والثلاثينات حول الأهداف التي تريد النخبة تحقيقها في المجتمع الجزائري، أفكارا يمكننا أن نعتبرها سياسية تسعى إلى الحداثة لا إلى الإندماج و يمكنها أن تلتقي في هذه المرحلة مع أفكار ابن باديس في مجالي التمدن و الترقي و هي:

1 - إحترام الإسلام واللغة العربية و المدنية الإسلامية.
2 - تحلي الفرنسيين عن خرافة التفوق الجنسي (15).
3 - العمل على تحقيق المساواة في الحقوق بين الجزائريين والمعمرين.
4 - إن جماعة النخبة تعلق آمالها على الشباب في النهوض بالمجتمع الاسلامي الجزائري، وجعله مجتمعا عصريا مسلما تقنيا حتى يستطيع منافسة المجتمع الأوروبي.
5 - تريد هذه الفئة (أي النخبة) أن تستفيد من الحضارة الأروبية دون أن تفقد حضارتها الخاصة (16).

إن فرحات عباس بالرغم من الموقف الذي أعلنه سنة 1936 تجاه الوطنية الجزائرية فقد كان أكثر أعضاء النخبة راديكالية و أكثر قربا من العلماء و من حزب الشعب الجزائري، و لكنه كان يتبع سياسة غامضة تجاه مسألة التحرر الوطني خلال العشرينات و الثلاثينات، و مع ذلك يمكننا أن ندعي أنه كان أقرب السياسيين من رئيس جمعية العلماء، لاسيما إذ أخذنا في الإعتبار ما كتبه الزعيم المغربي " علال الفاسي" (17). حين قال: "فهمت من حديث عباس فرحات خلال لقائي معه في باريس سنة 1933م بعد حوار بيننا إن المطالبة بالحقوق الفرنسية ليست إلا مرحلة يجب أن تجتازها الجزائر، و إن استقلال الأمة الجزائرية يجب أن يكون الغاية البعيدة التي نعمل لها" (18).

و هكذا يمكننا أن نؤكد أن ابن باديس و عباس فرحات كانا يسيران على خط سياسي واحد و يختلفان ثقافيا و ايديولوجيا. و إذا كانت معارف عباس فرحات واسعة جدا في

مجال السياسة فإن معارف ابن باديس كانت في العلوم الدينية و الأدبية أوسع منها من الميدان السياسي. لأنه كان يجد في الأول حرية أكثر أما في الثانية فلم يكن المجال واسعا لأن سيف الرقابة الاستعمارية كان مسلطا على رقاب الوطنيين دون مثلا لما استطاع أن يواصل مسيرته النضالية بيسر وسهولة كما هو في سياسته المعروفة. هذا ظل ابن باديس منذ منتصف سنة 1925م يحتج على الحكومة الفرنسية بسبب إجراءاتها التعسفية إزاء صحفه و رجال الحركة الوطنية عموما، و في الوقت نفسه يطالبها بتطبيق العدالة و المساواة بين الجزائريين و الفرنسيين في المستعمرة، ويحثها على الاعتراف بحقوق الجزائريين السياسية مقابل مايؤدونه من خدمات إلى فرنسا، ففي شهر (أيلول) سبتمبر سنة 1926م كتب مقالا آخر حول وقف الصحافة العربية في الجزائر، يبرز فيه ازدواجية الخطاب بوضوح تجاه الحكومة الفرنسية فيقول: "فنحن يا فخامة الوزير، بكل احترام للحكومة و القانون نرفع لكم احتجاجنا على هذا التوقيف مع عدم سؤالنا، و لا سماع حجتنا و اعتذارنا و لا تعريفيا على الأقل بسبب التوقيف، لنكون منه و من مثله على حذر و بصيرة. وإننا بهذه المناسبة نقدم لحضرتكم بيانا تاما لخطتنا و مقاصدنا ليكون لنا كوثيقة رسمية في وزارتكم الجليلة" (19).

وبعد أن احتج ابن باديس على وقف الصحف العربية التي حملت لواء الإصلاح والوطنية في الجزائر، يشرح للحكومة الفرنسية مبادئه و أهدافه و مقاصده من هذه الصحافة التي يصدرها هو أو بعض زملائه الآخرين فيبين أن مشروعة يقوم:

أولا: على مبادئ فرنسا الديمقراطية.

ثانيا: ضرورة إعطاء الحقوق التي يتمتع بها جميع الفرنسيين للجزائرين.

ثالثا: يعتبر ابن باديس نفسه مدافعا عن حقوق الجزائريين من جهة، و على مصالح فرنسا من سلوك المستوطنين من جهة أخرى.

رابعا: يرفض وصاية الأحزاب الفرنسية، و الإدارة الاستعمارية في الجزائر (20).

ويبقى المصلح الجزائري مدافعا عن الوطن الجزائري بجميع أوجهه، فتراه ينقل خطابه من الدفاع عن المؤسسات الإسلامية و الصحافة العربية و نقد النظام الاستعماري بصفة خاصة إلى الإنسان الجزائري، و هنا يلتقي بجماعة النخبة و مطالبهم بالمساواة بين الجزائريين و الفرنسيين مع فارق واضح في المنهج و الرؤية المتعلقين بقيم الشعب الجزائري و شخصيته الوطنية، كما أن لهجته كانت أشد و أكثر صرامة في نقد النظام الاستعماري، في حين أن لهجة جماعة النخبة و النواب كانت لا تخرج عن النغمة الناعمة تجاه الحكومة الفرنسية.

و بما أن الشعب الجزائري كان محل بحوث و دراسات تاريخية و اجتماعية و دينية و نفسية من قبل الباحثين المدنيين و العسكريين الفرنسيين، لمعرفة قدراته و مدى قابليته أو رفضه للاستعمار وأساليبه في المقاومة و أنماط حياته و طبيعية سلوكه في علاقاته الأسرية و الاجتماعية فإن ابن باديس بعد أن اطلع ودرس هذه الأبحاث، و وقف على أغراضها و أهدافها، و خاصة ما يتعلق منها بإخضاع الشعب و إذابته في المجتمع الفرنسي، عمل على تأسيس فلسفته الخاصة للنهوض بالآمة و توعية الشعب

بمقومات شخصيته، حيث يوجه خطابا مباشرا للجزائريين قائلا: إنك أيها الرجل المسلم الجزائري يجب أن تحافظ على رجولتك وإسلامك وجزائريتك" (21).
ثم يهيب الشيخ المصلح بالجزائري، أن يكون صاحب سيادة، وصاحب صناعة وتجارة وأن يعمر الأرض بالكد والعمل (22). ولكن بأسلوب غير مباشر، لكي لا يهتم بالتحريض على العصيان والثورة ضد فرنسا، فخاطبه بالآيات القرآنية التي تحث على السعادة والسيادة في الدنيا، فدعا إلى العلم بمثل قوله تعالى: (... وقل رب زدني علما) (23). وللفلاحة بمثل قوله تعالى: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها...)، (24) وإلى الصناعة وإتقانها بمثل قوله تعالى: (أن إعمل سابغات وقدر في السرد...)، (25) وإلى التجارة بمثل قوله تعالى: (...فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا...)، (26) وإلى الترقي بالعلم: (... قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون...)، (27) وإلى السيادة والعدل، والسعادة بالإحسان: (...إن الله يأمر بالعدل والإحسان...) (28)، ثم ينبه ابن باديس الجزائري إلى أن شرفه وسمعته لا يكونان إلا بشرف وسمعة قومه ووطنه (29).
و الحق أن ابن باديس كان واقعيا في التعريف بالجزائر، فهو لا يريد أن يحلق به في عالم المثل و لكنه حاول أن يضعه في إطاره التاريخي و القومي و الجغرافي، محيطا بعناصر شخصيته المتميزة " إنما ينسب للوطن أفراده الذين ربطتهم ذكريات الماضي و مصالح الحاضر و آمال المستقبل، فالذين يعمرون هذا القطر و تربطهم هذه الروابط هم الجزائريون، و النسبة للوطن توجب العلم بتاريخه و القيام بواجباته من نهضة علمية واقتصادية و عمرانية و المحافظة على شرف اسمه وسمعة بنيه، فلا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه و لا سمعة لمن لا سمعة لقومه" (30).
ثم يدعو ابن باديس الجزائريين إلى الجهاد بصورة صريحة، و يدلل على رفعة منزلة المجاهد بالآية القرآنية: (...وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) (31).
وكما يدعو المفكر الجزائري إلى الجهاد في الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي، يهيب بالفلسطينيين والعرب جميعا على الجهاد في فلسطين ضد الإنجليز والصهيونية العالمية. ومنذ أن بدأ يكتب عن القضية الفلسطينية وهو يهاجم الاستعمار بكل أشكاله ويعتبر الجهاد في فلسطين واجبا على الفلسطينيين و على كل العرب و المسلمين، كما يعتبر الجهاد دون شهداء "جهادا عقيما" عندما حكمت السلطات البريطانية على ثلاثة شبان فلسطينيين بالإعدام سنة 1930م قال ابن باديس بعد أن انتقد الإنجليز وأورد ما قاله الشباب الثلاثة قبل إعدامهم(*): " لم تدفن في تلك القبور الثلاثة جثث الأبطال الشهداء الخالدين كلا لقد دفن أولئك في القلوب العربية الدامية، إنما الذي دفن في تلك القبور أبديا هو سياسة التكفف والاستخذاء و الابتذال، فلن يكون بينهما في مستقبل الأيام إلا الموت الزؤام (32) .(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) (33).
وهكذا ينتقد ابن باديس فرنسا بصفة خاصة والدول الأوروبية الأخرى بصورة عامة في كل ما يتعلق بالسيادة والحرية والديمقراطية للشعوب الأخرى، التي يحاول الغرب

الهيمنة عليها في المشرق والمغرب، فموافقة السياسة لم تكن دفاعا عن الجزائريين فحسب بل دفاعا عن كل الشعوب التي وقعت في قبضة الاستعمار كما سنرى في المراحل الآتية.

نستخلص من كل ما سبق أن مقاومة ابن باديس للاستعمار الفرنسي كانت عن طريق نقد و كشف المخططات الاستعمارية، و مؤامرات الفرنسيين خصوصا و الاستعماريين الآخرين بصفة عامة تجاه الشعوب العربية و الإسلامية في المغرب وفي المشرق، و مساندة و تأييد كل ثورة أو حركة سياسية تلوح في أفق البلدان المستعمرة ضد الاحتلال، وقد رأينا كيف أن ابن باديس قد بدأ بنقد الإنجليز في الحجاز مع الحركة الوهابية، ثم كيف دافع عن أمير حرب الريف " عبد الكريم الخطابي" في مقاومته العسكرية قبل أن ينتقل إلى مقاومة هذا الاستعمار نفسه في الجزائر، و كانت مقاومته تتجلى في المقالات السياسية الاستعمارية في الجزائر، على كل المستويات والمسؤوليات والتي تعامل المسلمين الجزائريين كعبيد أو كآلة إنتاجية تذر الخيرات على الفرنسيين وحدهم.

وقد كتب عن كل الزعماء العرب الذين كانوا يقاومون الاحتلال الأجنبي لبلادهم، سواء كانت مقاومة عسكرية أو مقاومة سياسية، مبرزا نضالهم وبطولاتهم في جميع مجالات المقاومة لكي يقدم للشعب الجزائري أمثلة ونماذج جديرة بالإقتداء، فقد كتب عن الشيخ " عبد العزيز جاويش" أحد الوطنيين المصريين من أعضاء حزب الوفد المصري بعد وفاته في شهر آذار (مارس) سنة 1929م ركز فيه على مواقف الرجل الوطنية والدينية والسياسية، ومما قاله عنه: " كان الشيخ شديد الحب لوطنه مصر وملته الإسلام شديد الغيرة عليهما وقضى حياته كلها في خدمتهما وكانت جميع أطوار حياته معلقة بهذا الحب لهما وهذه الغيرة عليها" (34).

و في شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1931م كتب ابن باديس مقالا حول مقاومة "عمر المختار" و الاستعمار الإيطالي بالقطر الليبي، نعت فيه إيطالية بأنها أكبر الدول الاستعمارية اضطهادا و غطرسة لشعوب المستعمرات، و وصف " عمر المختار" عقب استشهاده بالوطني المجاهد الغيور على قومه ووطنه " الذي جاهد عشرين عاما دفاعا عن بيضة الإسلام و كرامة الوطن ضد الطغاة المستعبدين (35). و كيف أن الاستعماريين الطليان حاربوه بكل الوسائل من دبابات و طائرات و أسلاك شائكة و أسلحة فتاكة، حاصروا بها أتباعه و غلقوا أبواب زواياه كلها في البلاد وعمره ثمانون عاما. ومع ذلك فقد انتصر عليهم في عدة معارك.

و نحن لا نستطيع أن ندرس كل الشخصيات الوطنية التي كتب عنها ابن باديس في هذا السياق ومواقفها السياسية و العسكرية و الفكرية في الوطن العربي مشرقه و مغربه. و لكن يمكننا أن نذكر فقط أهم هذه الشخصيات أمثال: " عبد العزيز الثعالبي" و الشيخ" الطاهر الجزائري" و الشيخ" رشيد رضا" و "كمال أتاتورك" و الشاعران العربيان" حافظ إبراهيم" و " أحمد شوقي" و الشيخ " محمد الخضر حسين" و " سليمان باشا الباروني" ، و "إبراهيم طفيش" و غيرهم من الزعماء و الأدباء المصلحين.

إن الميزة الملاحظة بكثافة في مقالات ابن باديس هي الوطنية و القومية و الإسلام فما إن كتب عن أي شخصية من الشخصيات العربية أو الإسلامية إلا وأبرز فيها هذه الخصائص الثلاث.

وقد كانت انتقاداته أكثر جرأة وإحراجا للمسؤولين الفرنسيين في الجزائر وفي باريس نفسها، و لم يضاهيه في ذلك إلا قادة " النجم" و " حزب الشعب الجزائري". فهو بالرغم من أنه قد انتهج في مقاومته خطابا مزدوجا إلا أن كلماته كانت أشد وقعا، و أبلغ أثرا في نفوس الحكام الفرنسيين، و هو إن كان لم يطالب باستقلال الجزائر صراحة في أول الأمر على الأقل فإنه كان يعمل من أجل هذا الاستقلال بصورة عميقة الجذور، و قد بدأ بتكوين الإنسان - الجزائري - العربي المسلم تكوينا يجعله يرفض الظلم والاستعباد و الاستعمار بجميع أشكاله المادية و المعنوية.

ويظهر من النصوص أن المصلح الجزائري قد وضع خطة إستراتيجية حكيمة منذ أن أعلن تصديه للاستعمار و دفاعه عن الوطن المحتل، و تشكل كل من عبارات :" الحق فوق كل أحد و الوطن قبل كل شيء" (36). و الإسلام ديننا و الجزائر و طننا و العربية لغتنا"، برنامجا عمليا طبقه حرفيا حتى وفاته سنة 1940م.

و قد ظلت ثوريته تتدرج مع هذا البرنامج يوما بعد يوم، ومواقفه تزداد حدة و صلابة و كشفه لمؤامرات الاستعمار و خططه، يزداد مع ازدياد قاعدته الشعبية و كتائبه الطلابية حتى وافته المنية في ظروف غامضة.

وسيتضح من خلال المرحلتين الآتيتين (1931 - 1935، 1935 - 1939) مدى نجاح الرجل في تنفيذ برنامجه على ارض الواقع، مما جعل السلطة الاستعمارية تحسب له ألف حساب وتتخذ إجراءات احتياطية قمعية لحركته.

والحق أن الكثير من آراء ومواقف المفكر الجزائري كانت تبدو عادية للباحثين والكتاب، إذا ما نظر إليها بمعزل عن ظروف الوطن الجزائري، الذي عاش تحت القبضة الحديدية للاحتلال الفرنسي زهاء قرن وثلث قرن.

والواقع أن التعليم الذي كان يقوم به ابن باديس في الجزائر يشكل ثورة في حد ذاته، إذا ما قورن بالمجتمع المصري والتونسي والمغربي في عصره على سبيل المثال، ذلك أن المجتمع الجزائري قد فقد كل مقوماته الشخصية، وفي مقدمتها مؤسسات الدولة واللغة وإطارات الثقافة العربية، في حين أن المجتمعات المصرية والتونسية والمغربية ظلت متمتعة بثقافتها وحكوماتها الوطنية، ومن هنا فإن المعايير التي تقاس بها أعمال الرجال في المقاومة تكون مختلفة باختلاف الظروف المكانية و الزمانية في ذلك الوقت، بل ربما كانت حياة هذا الرجل الفكرية برمتها غير ذات أهمية كبرى، إذا ما أخذت بمعزل عن مواقفه السياسية النضالية ضد الاستعماريين، فالرجل كان يتخذ من القرآن مدرسة يعلم فيها الناشئة النضال والصبر على المكاره، فيفسر الآية (إن الله يدافع عن الذين آمنوا، إن الله لا يحب كل خوان كفور)(37)، بقوله إن "دفع الله يكون بأسباب وأنواع وعلى وجوه تختلف بسبب الحكمة، ولا تخلو كلها من دفاع، فإن ما يصيب المؤمنين في أفرادهم وجماعاتهم، هو ابتلاء يكسبهم القوة والجد ويقوي فيهم الصبر والثبات، وينبههم إلى مواطن الضعف فيهم وناحية

التقصير منهم، فيتداركون أمرهم بالإصلاح و المتاب، فإذا هم بعد ذلك الابتلاء، أصلب عودا و أطهر قلوبا و أكثر خبرة و أمنع جانبا،و إن في صبر الصابرين منهم، و قد نزل به البلاء الذي لا يقدر على دفعه، و الظلم الذي لا يقدر على إزالته،لبعث القوة في نفس غيره ممن يأنس به و ضعفت في قلب ظالمه، و في كليهما دفع من الله للمؤمنين" (38). و سنرى في المراحل الآتية كيف تصاعد عمل الرجل بتصاعد قوة القاعدة و التنظيم الذي أسسه و أقامه و رعاه.

و الحق أن الباحث ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار مسألة هامة تميز بها عمل ابن باديس ألا و هي الربط في كل ما كان يكتبه أو ينقله عن غيره، سواء من التراث العربي أو من التراث الغربي، بالظلم و الاستبداد و العبودية و الاستعمار و الحرية و الديمقراطية و السيادة و الكرامة و العزة و نحو ذلك، حيث كان يختار في تفسيره الآيات القرآنية التي يمكن ربطها بواقع الجزائر على عهده، كما كان ينقل القصص الطريفة التي تصل بالقارئ في نهاية المطاف إلى استنباط ميزة من الميزات السالفة الذكر. فهو مثلا عندما يريد الحديث عن رجال عرفوا بالتمرد و الثورة على الواقع الذي كانت تعيشه أمة من الأمم، يبدأ بتعريف صفة من الصفات المحمودة في البشر، و نحن لا نستطيع أن نورد في هذا السياق كل ما كتبه أو نقله عن غيره، إنما نكتفي ببعض النماذج فقط فعندما كتب عن " علي بن أبي طالب" وابنيه " الحسن و الحسين" في مارس سنة 1931م، بدأ حديثه هكذا : أباة الضيم هم الممتنعون من الذل، الذين يختارون المنية على الدنيا، يستطيبون الموت في العز على الحياة في الذل، يعلمون أن الموت في العز راحة و شرف و أن الحياة في الذل عذاب و مهانة، و قد كان هؤلاء في رجالات العرب و الإسلام مثيرا عددهم، مشهورة مواقفهم، بل كاد يكون هذا الخلق عاما في العرب و الإسلام في تلك الأيام (39).

هوامش

[1]- ابن باديس: " الشهاب و النتقد"، *الشهاب*، العدد1، 25 ربيع الثاني 1344هـ 12 نوفمبر 1925م، ص.1.

[2]- المصدر نفسه، ص.1.

[3]- ابن باديس:" المناضرة و المهاترة "، *الشهاب*، العدد 15، 5 شعبان 1344هـ 18 فبراير 1926م، ص.2.

[4]- المصدر نفسه، ص. 2.

[5]- ابن باديس في بحر عام: " أعمالنا وآمالنا "، *الشهاب*، العدد 32، 11 ذي الحجة 1344 هـ، 24 جوان 1926م، ص.1.

[6]- ابن باديس: " خطاب الوالي العام للقطر الجزائري بالنيابة المالية المسألة الأهلية، " *الشهاب*، العدد 21، قسنطينة 25 رمضان 1344 هـ، 8 أفريل 1926م، ص 1.

[7]- المصدر نفسه، ص 2.

[8]- فرحات عباس: ليل الاستعمار (ثورة الجزائر)، تعريب أبو بكر رحال، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، بدون تاريخ ص ص 144 - 145.

[9]- ابن باديس: " خطاب الوالي العام للقطر الجزائري بالنيابة المالية المسألة الأهلية، "*الشهاب*، العدد 21، قسنطينة 25 رمضان 1344 هـ، 8 أفريل 1926م، ص 1.

[10]- المكان نفسه.

[11]- Henry BENAZET: L'Algérie française en danger, Paris, 1947, PP.39-40.

و كذلك: شارل اندري جوليان: افريقيا الشمالية تسير، ترجمة: المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، سنة 1976م، ص. ص. 308 309.

[12]- ابن باديس: " عيد الحرية 14 جويلية، "*الشهاب*، العدد 38، قسنطينة، 5 محرم 1345 هـ/15 جويلية 1926م، ص1.

[13]- المكان نفسه.

[14]- المكان نفسه.

[15]- عباس فرحات: المرجع السابق، ص144.

[16]- المصدر نفسه، ص ص 144 - 145.

[17]- المكان نفسه.

[18]- علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، لجنة الثقافة الوطنية لحزب الاستقلال، مراكش، القاهرة، سنة 1948، ص 20.

[19]- ابن باديس: " نحن صرحاء، والصريح لا يخاف، سياستنا واحدة من يوم التأسيس، "*الشهاب*، العدد52، 25 صفر 1345 هـ/2 سبتمبر 1926م، ص 1.

[20]- المكان نفسه.

[21]- ابن باديس: " الرجل المسلم الجزائري، " ص 9.

[22]- المكان نفسه.

[23]- سورة طه، الآية 114.

[24]- سورة هود، الآية 61.

[25]- سورة سبأ، الآية 11.

[26]- سورة الجمعة، الآية 10.

[27]- سورة الزمر، الآية 9.

[28]- سورة النحل، الآية 90.

[29]- ابن باديس: الرجل المسلم الجزائري، " ص ص 10 - 11.

[30]- المصدر نفسه، ص ص 11 - 14.

[31]- سورة النساء، الآية 95.

[32]- سورة آل عمران، الآية 169.

[33]- ابن باديس: " شهداء فلسطين الدامية، "*الشهاب*، ج7، م6، غزة ربيع الأول1349 هـ/أوت 1930م، ص150.

(*) فؤاد حجازي، عطاء الزير، محمد جمجوم.

[34]- ابن باديس: " وفاة الشيخ عبد العزيز جاويش، "*الشهاب*، ج2، م5، غزة شوال 1347 هـ/ مارس 1929م، ص 120.

[35]- ابن باديس: " سيد الشهداء ورأس الأبرار، "*الشهاب*، ج10، م7، غزة جمادي الثانية 1350 هـ/ أكتوبر 1931م، ص80.

[36]- ابن باديس: جريدة المنتقد، العدد الأول، قسنطينة، 2 يوليو 1925، ص1.

[37]- سورة الحج، الآية 38.
[38]- ابن باديس: التفسير/ مطبعة المؤسسة الوطنية للشؤون المطبعية، الرغاية، الجزائر 1993، ص453.
[39]- ابن باديس: " أباة الضيم، "*الشهاب*، ج3، م7، غزة ذي القعدة 1349هـ مارس 1931م، ص ص 255 - 258.

□